ثالثاً :

أبحاث قسم اللغة العربية وآدابها

١- من بلاغة التعبير بغير القول

د/ بغدادي لإبراهيم الصحابي

٢- منهج عبد القادر الجرجاني فى تعامله مع البديع دراسة تأصيلية لنقض تقسيم البديع وردة

د/ عبد العزيز بن صالح بن عبد العزيز العمار

٣- موقع الجبال فى تصوير القرآن الكريم دراسة بلاغية تطبيقية

د/ عبد الله عبد الخالق محمد

٤- شعر أبى طالب بن عبد المطلب فى مناصرة ﷺ

د/ محمد محمد خميس

٥- البلاغة القرآنية فى آيات الدين

د/ رمضان محمد بن محمود

٦- شعر الأسر بين ابر فراس ومعتد بن عباد

د/ محمد مختار جمعة مبروك

من بلاغة التعبير بغير القول

دكتور / بغدادي إبراهيم الصحابي

أستاذ مساعد بلاغة ونقد

كلية اللغة العربية بجرجا جامعة الأزهر

مقدمة

الحمد لله الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم ، وهداه وأرشده إلى تدبير شؤونه بأيسر سبيل ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۞ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ والصلاة والسلام على نبينا محمد الذي فهم عن الله مراده ووصله إلى أمته بأبلغ طريق وأوضح سبيل.

وبعد،،

فالبلاغة العربية لم تقتصر على فن القول ، وإنما بمفهومها الأشمل والأعم تتناول العديد[1] من لغات التواصل بغير القول ، والمتأمل للكلام العربي وخاصة القرآن الكريم والسنة المطهرة والفصيح من الشعر يتبين له بجلاء ووضوح الاستعمال الكثير لتوصيل المراد بغير القول.

وذلك مثل التعبير بالإشارة وما تحمله من المعاني المفهومة بين المشير والمشار إليه ، وفي بعض الأحيان تحتمها الحاجة وتلزمها الضرورة ، فلا يجد المعبر عنها تحتمها الحاجة وتلزمها الضرورة ، فلا يجد المعبر عنها مناصاً ولا لها بديلاً ، وعندما يتطلبها المقام تكون أبلغ من كل صنوف القول.

وكذلك التعبير بملامح الوجوه ، والتي تبلغ حال صاحبها من فرح وسرور ورغد العيش وحلاوة النعيم ، وكذلك تعبر عما يعتري النفس من ألم وحزن ، فهناك الوجوه الناضرة والناعمة والمسفرة والضاحكة والمستبشرة ، وفي المقابل هناك الوجوه الباسرة العابسة الكالحة والخاشعة والوجوه التي عليها غبرة ويرهقها القتر وغير ذلك.

---

(١) (الكثير) ؛ لأن العديد في اللغة مصدر (عَدّ) ومعناه (العدد) ورحمه الله القائل :

تعيرنا أن قليل عديدنا ... فقلت لها إن الكرام قليل.

وكذلك التعبير بالعيون عن حال صاحبها من فرح وحزن وسخرية واحتقار وحنان وعطف ، والإشارة بالاستمرار في الحديث أو التوقف عنه ، وهناك العيون التي تفيض من الدمع والعيون التي تبيض من الحزن وعيون تدور من الخوف ، وعيون تزني ، وعيون تسبي ، وعيون تجرح ، وعيون تقتل ، وغير ذلك.

وكذلك التعبير بالتبسم والذي يعبر في الأصل عن الفرح والسرور ، وقد يخرج عن ذلك ، مثل السخرية ، أو التعجب ، أو التظاهر بالفرح ، أو الرضا عن فعل شئ أو تركه ، أو غير ذلك ، وما يقال عن التبسم يقال عن الضحك.

وكذلك البكاء وما يعبر عنه من الألم أو الحزن أو الخوف أو إظهار الخشوع أو التأثير في الغير من حيث استجلاب العطف أو رفع الظلم أو إبداء ما عليه الشخص ، أو غير ذلك.

وقلوب يلقى فيها الرعب ، قلوب يختم عليها ، وقلوب يطبع عليها ، وقلوب لا يفقه بها ، وقلوب تشمئز ،وقلوب عليها أقفالها ،وقلوب فيها السكينة ، قلوب فيها الرأفة والرحمة ، قلوب فارغة ، وقلوب يربط عليها ، وقلوب بها زيغ وقلوب واجفة، وقلوب تطمئن ، وقلوب أصابها العمى ، وقلوب تتقلب ، وقلوب تبلغ الحناجر ، قلوب منكرة ، وقلوب عليها أكنة ، وقلوب لاهية ، وقلوب غمرة ، وقلوب تمتحن ، قلوب كتب فيها الإيمان عليها الران ، وغير ذلك.

والمشية تعبر عن السكينة والوقار ، أو التواضع ، ومشية تعبر عن الكبر والخيلاء ، أو الخوف والوجل وغير ذلك.

وهناك التمثيل الصامت والذي يعتمد على الحركات المعبرة ، وهناك فن (الكركتير) وما يشير إليه من المعاني الساخرة الناقدة المضحكة في بعض الأحيان ،

واللوحات التي يبدعها أهل هذا الفن ، وما تحدثه من تأثير عجيب على[1] نفوس المشاهدين ، ولغة الإشارة التي يخاطب بها الصم البكم. وما شابه ذلك من غير التعبير بالقول.

وكون هذه الألوان من صميم البلاغة ليس بغريب ولا جديد وأكبر دليل على ذلك استعمال القرآن الكريم لها وكذلك السنة النبوية المطهرة ، وكذلك الفصيح من الشعر.

وأيضاً فطن إلى هذا المراد كثير من أسلافنا من أئمة هذا الفن فقد نقل الجاحظ في البيان والتبيين عن ابن المقفع أنه قال : البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة ، فمنها ما يكون في السكوت ، ومنها ما يكون في الاستماع ، ومنها ما يكون في الإشارة ، ومنها ما يكون في الاحتجاج ، ومنها ما يكون جواباً ، ومنها ما يكون شعراً ، ومنها ما يكون سجعاً وخطباً ومنها ما يكون رسائل....[2]

وأفهم من هذا النص أن البلاغة تكون في السكوت وتكون في الإشارة ، وتكون في الاستماع ، فالسكوت لا يشتمل على القول وهو من صميم البلاغة ، والإشارة لا تشتمل على اللفظ وهي أيضاً من صميم البلاغة ، والاستماع لا قول فيه واعتبره[3] أسلافنا أيضاً من البلاغة.

وقد ورد في كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري أن البلاغة من قولهم : بلغت الغاية إذا انتهيت إليها ، وبلغتها غيري ، ومبلغ الشئ منتهاه ، والمبالغة في

---

(١) (في) بدلا من على.

(٢) البيان والتبيين ج١ ، ص ١٠٩ ، ١١٠ أبي عثمان عمرو بن بحر ٢٥٥ دار صعب بيروت ١٩٦٨ الطبعة : الأولى المحقق المحامي فوزي عطوي.

(٣) (عَدَّهُ) ، لأن (الاعتبار) يعنى الاتعاظ ، وهو لا يؤدى المعنى المقصود.

الشئ الانتهاء إلى غايته ، فسميت البلاغة بلاغة لأنها تنتهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه[١] وقال العتابي : كل من أفهمك حاجته فهو بليغ[٢].

وأفهم من كل هذا أن هذه الألوان من صميم البلاغة وهذا الكلام المنقول عن أرباب هذا الفن يدحض الشبه الزاعمة أن بلاغة العرب خالية من هذه الألوان ، ويبطل الزعم القائل أن [٣] بلاغة العرب محصورة ومصورة على فن القول والتمثل في علومها الثلاثة المعاني والبيان والبديع.

وأستمد العون من الله وأستلهم التوفيق منه وأسأله السداد والرشاد ، والعصمة من الذلل والخطأ والانحراف فهو سبحانه ولي ذلك والقادر عليه.

---

(١) الصناعتين ، أبي هلال العسكري ص١٢ ، تحقيق علي محمد البجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم.

(٢) الصناعتين ص ١٧.

(٣) الصواب (إنَّ) بكسر الهمزة.

ملامح الوجوه

جاء في لسان العرب :ملامح الانسان ما بدا من محاسن وجه ومساويه ٠ وقيل هو ما يلمح منه واحدتها لمحه على غير قياس ، ولم يقولوا ملمحة قال ابن سيده قال ابن جني استغنوا بلمحة عن واحد ملامح[1].

لاريب ان ملامح الوجوه تفصح وتعبر تعبيرا بلغيا عن أحوال اصحابها فهناك الوجوه التي تبيض يوم العرض،وان كانت من أسود الوجوه في دار الدنيا،وبياضها يوم القيامة دليل على شرفها ،وشدة فرحها وسعادتها ،وفي المقابل وجوه تفضح بسوادها يوم العرض،وان كانت من انصع الوجوه وأبيضهافي دار الدنيا.﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (آل عمران:١٠٦)

نحن في هذه الآية الكريمة مع مشهد من مشاهد الهول يوم القيامة حيث غابت الألفاظ والصفات وحضرت الوجوه والسمات،نحن أمام وجوه فاضت بالبشاشة والبشر فابيضت ووجوه أصابها الكمد والحزن فعلتها الكآبة فاغبرت واسودت.

لو احتشدت كل بلاغات الألفاظ والجمل والتراكيب، والتشبيهات والاستعارات وغير ذلك من ألوان البلاغة لكي تصور هذا المشهد العجيب المؤثر البليغ مثل ما صورته

الوجوه لأصابها العجز وأدركها العي .

---

(١) لسان العرب ج:٢ص: ٥٨٤ محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري ٧دار صادر بيروت رقم الطبعة الأول.

هل يستطيع أحد أن ينكر بلاغة الوجوه وقوة تعبيرها وشدة تأثيرها في هذا الموقف ، إنها وجوه فضيحة ، وكذلك هي بليغة ، فأهل الإيمان يستحضرون هذا المشهد فيزداد فرحهم ، ويقوى يقينهم أما أهل الكفر فيشتد حزنهم .

وبياض الوجه وسواده كنايتان عن ظهور بهجة السرور وكآبة الخوف فيه ، وقيل يوسم أهل الحق ببياض الوجه والصحيفة وإشراق البشرة وسعي النور بين يديه وبيمينه،

وأهل الباطل بأضداد ذالك . (١)

ولكن متى يحدث ذلك اختلف أهل التفسير قيل ((يوم القيامة حين يبعثون من قبورهم تكون وجوه المؤمنين مبيضة ووجوه الكافرين مسودة ، ويقال إن ذلك عند قراءة الكتاب،إذا قرأ المؤمن كتابه فرأى في كتابه حسناته استبشر وابيض وجهه، وإذا قرأ الكافر والمنافق كتابه فرأى فيه سيئاته أسود وجهه، ويقال إن ذلك عند الميزان إذا رجحت حسناته أبيض وجهه وإذا رجحت سيئاته أسود وجهه . (٢)

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۝ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ (القيامة : ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥)

الإنسان في دار الدنيا يعجبه المنظر الجميل من شجر وخضرة وماء وصفاء السماء وشروق الشمس وضوء القمر ساعة اكتماله والوجه الحسن الوضوء والابتسامة الرقيقة كل ذلك وغيره يسعد النفس ويملأها بالسرور والفرح والبهجة ويظهر كل

---

(١) تفسير البيضاوي ج:٢ص:٧٧البيضاوي٧٩١ دار الفكر: بيروت :١٤١٦ - ١٩٩٦- المحقق: :عبد القادر عرفات العشا حسونة.

(٢) تفسير القرطبي ج :٤ص:١٦٦ الجامع لأحكام القرآن :محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فرج القرطبي أبو عبد الله: ٦٧١ دار الشعب القاهره: ١٣٧٢ الطبعة : الثانية المحقق : أحمد عبد العليم البردوني

ذلك على ملامح وجهه، فمن رآه قرأ السعادة في وجهه وأدرك السرور والابتهاج في قسماته.

إذا كان هذا حالها بسبب رؤية بديع صنع الله – تعالى- فما بالك إذا شاهدت، مبدعها وصانعها ومودع فيها الجمال والحسن والبهاء، فما بالك إذ شاهدت غاية الغايات وأمنية الأمنيات إنها السعادة التي لا تدانيها سعادة والسرور الذى لايشبهه سرور، والفرح الذي لا يقترب منه فرح إنها نضرة النعيم الذي لا نعيم بعده.

كيف لا تكون ناضرة وهي إلى صانعها ومربيها ناضرة، إنها بلاغة الملامح الوصافة الكشافة المجلية، سكتت الألسنة مهما أوتيت من فصاحة وبلاغة ونطقت الوجوه بسيماها وقسماتها ، عجزت الألفاظ والعبارات عن تصوير هذه الوجوه الناضرة كما يراها الناظر ويتأثر بها.

إنها وجوه كثيرة ،وهى وجوه المؤمنين المخلصين يوم إذ تقوم القيامة بهيئة متهللة يشاهد عليها نضرة النعيم[1].- أو ناضرة أي حسن ناعم ،ونضارة العيش حسنه وبهجته ، قال الواحدي والمفسرون يقولون مضيئة مسفرة مشرقة [2].

والقرآن كثيراً ما يسلك في نظمه لتوضيح الأمر وبيانه المقابلات العجيبة ومن ذلك مقابله الوجوه بالوجوه فعندما يذكر الوجوه التي تبيض يذكر الوجوه التي تسود، وعندما يذكر الوجوه المسفرة الضاحكة المستبشرة يذكر في مقابلها الوجوه التي

---

(١) تفسير أبى السعود ج: ٩ ص : ٦٧ : إرشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم : محمد بن محمد العمادى أبو السعود : ٩٥١ : دار إحياء التراث العربى : بيروت .

(٢) فتح القدير ج: ٥ ص : ٣٣٨: فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير : محمد بن على بن محمد الشوكانى : ١٢٥٠ : دار الفكر : بيروت .

عليها ، وعندما يذكر الوجوه الناضرة يذكر في مقابلها الوجوه الباسرة ، وبضدها تتميز الأشياء .

وذكر الله هنا في المقابل الوجوه التى حجبها البعد عن النظر الى خالقها ، الوجوه الكالحة العابسة التى تتوجس خيفة من انتظار مصيرها المشؤوم وحرمانها المحتوم ، وجوه أحبت العاجلة وتركت الآخرة وتركت وراءها يوماً ثقيلاً ، يوماً عبوساً قمطريراً .

باسرة أى مقطبة قد أيقنت أن العذاب نازل بها ، وبسر الرجل وجهه بسورا أى كلح [1] . — وقيل — : عابسة كئيبة ، قال السدى باسرة أى متغيرة مصفرة، والمراد بالوجوه هنا وجوه الكفار [2] .﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ (عبس : ٣٨ — ٤١)

ومشهد من مشاهد القيامة تظهر فيه الوجوه الضاحكة المستبشرة الناجية من هول الصاخة والفرحة بما قدمته من عمل ، أو تعرف عاقبتها الحميدة ومصيرها المبشرة، وتعرف ما ينتظرها من النعيم المقيم الذى لا تشقى بعده أبداً ، فحق لها أن يعلوها البشر ، وتتهلل فرحاً وسروراً وغبطة ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (يونس : ٥٨) .

ومسفرة — أى مضيئة متهللة ، من أسفر الصبح إذا أضاء ، وعن ابن عباس — رضى الله عنهما — أن ذلك من قيام الليل ، وفي الحديث من كثرة صلاته بالليل حسن

---

(١) لسان العرب ج : ٤ ص : ٥٨ .

(٢) فتح القدير ج : ٥ ص : ٣٣٩ .

وجهه بالنهار ، وعن الضحاك من آثار الوضوء ، وقليل من طول ما اغبرت في سبيل الله، ضاحكة مستبشرة بما تشاهد من النعيم المقيم والبهجة الدائمة[١].

وقيل – أى مشرقة مضيئة ، قد علمت مالها من الفوز والنعيم ، وهى وجوه المؤمنين، ضاحكة أى مسرورة فرحة مستبشرة [٢] .

وفي المقابل ذكر الوجوه التى عليها غبار وسواد لأنها فرطت في جنب الله ، ولم تلتزم بشرعه وأحكامه فسيطرت عليها الشهوات وتحكمت فيها الأهواء ، فكان مصيرها الفضيحة الكبرى يوم العرض ، حيث العلامات البارزة والوجوه المكتئبة .

فهى وجوه لا تتكلم وإنما تعبر عن مكنون أنفس أصحابها بملامحها ، وهذه الملامح في تعبيرها أبلغ وأشد وأقوى ، من حيث التأثير في الغير والإفصاح عما في النفس من أبلغ كلام مهما اختير له من الألفاظ والعبارات والتراكيب .

والغبرة – أى غبار ودخان ، ترهقها ، أى تغشاها ، قترة ، أى كسوف وسواد، كذا قال ابن عباس ، وعنه أيضا ذلة وشدة ، والقتر في كلام العرب الغبار جمع القترة عن أبى عبيد ، وأنشد الفرزدق :

متوهج برداء الملك يتبعه موج ترى فوقه الرايات والقترا

وفي الخبر إن البهائم إذا صارت ترابا يوم القيام حول ذلك التراب في وجوه الكفار ، وقال زيد بن أسلم القترة ما ارتفعت الى السماء والغبرة ما انحطت الى الأرض ، والغبار والغبرة واحد [٣] . ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ (الغاشية:٢)

---

(١) تفسير أبى السعود ج : ٩ ص : ١١٣ .

(٢) تفسير القرطبى ج . ١٩ ص . ٢٢٥ .

(٣) تفسير القرطبى ج. ١٩ ص . ٢٢٦ .

وفي هذه الآية الكريمة نرى تعجيل مشهد الوجوه المتعبة المرهقة الذليلة الحزينة التى تعب أصحابها في دار الدنيا لأنفسهم وأولادهم وشهواتهم ونزواتهم ، ولم يدخروا شيئاً لآخرتهم يرجى نفعه ، وتقديم هذا المشهد هنا يتناسب مع الغاشية وما فيها من أهوال والتى من أهم مظاهرها تلك الوجوه اليائسة البائسة .

والمراد بخاشعة ذليلة ، ولم توصف بالذل ابتداء لما في وصفها بالخشوع من الإشارة إلى التهكم ، وأنها لم تخشع في وقت ينفع فيه الخشوع ، وكذا حال وصفها بالعمل في قوله سبحانه عاملة[1].

نعم هذه الوجوه في دار الدنيا تركت الخشوع لله وخشعت للمخلوق ، وكل ما عملته في دار الدنيا لم يكن لله فكان الجزاء من جنس العمل ، فالخشوع هنا خشوع ذلة ومهانة ، وهو يدل على العاقبة السيئة والمصير المشؤوم ، لقد أفصحت هذه الوجوه عن أحوال أصحابها بلا تكلم ولا تحدث ، وتعبيرها في هذا الموقف هو أبلغ من أى كلام أو حديث .

ثم ذكر في المقابل الوجوه الناعمة التى خشعت في دار الدنيا لخالقها ، وعملت ابتغاء مرضاته، خشعت في الدنيا لتكون ناعمة في الآخرة ، وعملت وكدت في العاجلة لتجد الراحة والسكينة والطمأنينة في الآجلة . ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ (الغاشية:٨)

شروع في رواية حديث أهل الجنة ، وتديم حكاية أهل النار لأنه أدخل في تهويل الغاشية وتفخيم حديثها ، ولأن حكاية حسن حال أهل الجنة بعد حكاية

---

(١) روح المعانى ج. ٣٠ ص . ١١٢ روح المعانى في تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى . محمود الألوسى أبو الفضل . ١٢٧٠ دار إحياء التراث العربى . بيروت .

سوء حال أهل النار مما يزيد المحكي حسنا وبهجة وناعمة أي – ذات بهجة أو متنعمة .

إن النبي محمداً – صلى الله عليه وسلم – كان هو وأصحابه يكثرون من السجود لله رب العالمين ، وأثر ذلك السجود يبدو واضحاً على ملامح وجوههم،ووجوههم تعبر أبلغ تعبير وأبيته عن حالة الإخلاص التي كانوا عليها في جوف الليل حيث لم يطلع عليهم احد إلا خالقهم ورازقهم ، وفي الصباح ، تتكلم الوجوه وتفصح عن الحالة التي كانوا عليها في المساء ، وظهور أثر السجود علي ملامح الوجوه يزيدهم وقاراً وبهاء وهيبة.

﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾(الفتح :٢٩)

السيما العلامة،وفيها لغتان المد والقصر، أي تظهر علامتهم في جباههم من أثر السجود في الصلاة ،وكثرة التعبد بالليل والنهار ، وقال الضحاك إذا سهر الرجل أصبح مصفرا فجعل هذا هو السيما ، وقال الزهرى مواضع السجود أشد وجوههم بياضا يوم القيامة ، وقال مجاهد هو الخشوع والتواضع ، وبالأول أعنى كونه ما يظهر في الجباه من كثرة السجود ، قال سعيد بن جبير ومالك ، وقال ابن جرير هو الوقار ، وقال الحسن إذا رأيتهم مرضى وما هم بمرضى ، وقيل هو البهاء في الوجه

وظهور الأنوار عليه وبه قال سفيان الثورى [١] — و ، – قال عامر بن عبد قيس كاد وجه المؤمن يخبر عن مكنون عمله وكذلك وجه الكافر [٢] .

والمعية المشار إليها في في قوله (والذين معه) تدل على استجابتهم وانقيادهم وطاعتهم للرسول — صلى الله عليه وسلم — وفي ذلك تمام سعادتهم وكمال لذتهم ، وقوله (تراهم ركعاً سجداً) يدل على دوام هذه الحالة وتجددها منهم ، ولا غرض لهم من وراء ذلك إلا ابتغاء الفضل والرضوان من مربيهم والمنعم عليهم ، وطلبهم لذلك الفضل والرضوان دائم ومتجدد .

وهذا موقف من مواقف القيامة تعبر فيه الوجوه بالفرح والسرور والغبطة ، هذه الوجوه تشاهد فيها البهجة والبريق ، وأى بهجة وأى بريق إنها بهجة النعيم وبريق الصفاء والنقاء ، فكل من يرى هذه الوجوه يبتهج لابتهاجها ويسر لسرورها ويفرح لفرحها .

﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ (المطففين : ٢٤)

ونضرة النعيم أى بهجة التنعم وماءه ورونقه ، والخطاب لكل أحد ممن له حظ من الخطاب للإيذان بأن مالهم من آثار النعمة وأحكام البهجة بحيث لا يختص برؤيته راء دون راء [٣] .

والتعبير بقوله (تعرف) أشد بلاغة مما لو قال ترى أو تشاهد لأن الرؤية قد تخون صاحبها فتخدعه أما العرفان فلا مجال فيه للخداع أو الشك فالنعيم حقيقة

---

(١) فتح القدير ج . ص . ٥٦ .

(٢) روح المعانى ج . ٢٦ ص . ١٣١ .

(٣) تفسير أبى السعود ج. ٩ ص . ١٢٨ .

لا مراء فيها ، ولما كان هذا العرفان متكرراً ومتجدداً بتكرر وتجدد الرؤية قال تعرف بالفعل المضارع.

هنا يتحدث القرآن عن موقف من مواقف القيامة ، وهو يبين حل أهل الإيمان الذين أحسنوا معرفة الله في دار الدنيا ، وأحسنوا الاعتقاد وأحسنوا العمل ، فكان جزاؤهم نقاء الوجوه وبهاءها ونضرتها ، في نفس الوقت الذى تغبر فيه وجوه أهل الضلال ويغشاها القتر والاكتئاب .

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (يونس : ٢٦)

أى لا يغشاها غبرة ما فيها سواد ولا أثر هوان ما وكسوف بال ، والمعنى لا يعرض عليهم ما يعرض لأهل النار ، أو لا يعرض لهم ما يوجب ذلك من الحزن وسوء الحال ، والكلام على الأول حقيقة ، وعلى الثانى كناية ، لأن عدم غشيان ذلك لازم لعدم غشيان ما يوجبهما فذكر اللازم لينتقل منه إلى الملزوم ، ورجح هذا بأنه أمدح ، والمقصود بيان خلوص نعيمهم من شوائب المكاره إثر بيان ما من سبحانه به عليهم من النعيم ، وقيل إن ذكر ذلك لتذكيرهم بما ينقذهم منه فإنهم إذا ذكروا ذلك زاد ابتهاجهم ومسرتهم ، كما أن أهل النار إذا ذكروا ما فاتهم من النعيم إزداد غمهم وحسرتهم ، وقيل الغرض إدخال السرور عليهم بتذكير حال أعدائهم أهل النار ، فإن الانسان متى علم أن عدوه في الهوان وسوء الحال ازداد سروراً، وقد شاهدنا من يكتفي بمضرة عدوه عن حصول المنفعة له ، بل من يسره ضرر عدوه وإن

تضرر هو ، وتقديم المفعول على الفاعل للاهتمام ببيان أن المصون من الرهق أشرف أعضائهم ، وللتشويق إلى المؤخر ، ولأن في الفاعل ضرب تفصيل [١] .

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (الحج : ٧٢)

تكاد وجوه أهل الكفر أن تنطق بالبغض الشديد لآيات الكتاب العزيز ، لا يستطيعون كتم ذلك ، ولا إخفاءه ، ولو حاولوه تفضحهم الوجوه ، وتخزيهم اللامح والسمات، إنها تعبر عما في القلوب من حقد وصد ونفور ، بلاغة التعبير بالملامح ظاهرة وواضحة، إنها أبلغ من الكلمات والجمل مهما كانت قساوتها واشتدت حدتها .

والمنكر الإنكار لفرط تكبرهم للحق وغيظهم لأباطيل أخذوها تقليدا ، وهذا منتهى الجهالة ، وللإشعار بذلك وضع الذين كفروا موضع الضمير [٢] .

والخطاب إما لسيد المخاطبين – صلى الله عليه وسلم – ، أو لمن يصح أن يعرف كائنا من كان المنكر أى الإنكار على أنه مصدر ميمى والمراد علامة الإنكار أو المستقبح من التجهم والسبور والهيئات الدالة على ما يقصدون [٣] .

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ﴾ (الملك:٢٧)

---

(١) روح المعانى ج . ١١ ص . ١٠٣ .

(٢) تفسير أبى السعود ج . ٩ ص . ١٢٨ .

(٣) روح المعانى ج . ١٧ ص . ١٩٩ .

والقرآن الكريم في كثير من آياته يستحضر صوراً حية وناطقة من مشاهد يوم القيامة، فهذا المشهد انتقل فيه النظم الكريم نقلة سريعة مفاجأة من سؤالهم عن مجيء الوعد ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الملك : ٢٥) إلى الواقع المرير الذى لا فكاك لهم منه ، فاستحضر حالتهم عند رؤيتهم للوعد بصورة حقيقية تهز المشاعر هزاً ، وتحرك الضمائر تحريكاً قوياً ، وتلفت الانتباه ، وتعزز موقف أهل الإيمان .

إن كآبة الوجه سمة يتسم بها وجه الكافر ، وعلامة تميزه من غيره من أهل الإيمان، وهم لا يستطيعون إخفاءها ، ولا التخلص منها ، لأنها تلزمهم ، وفي ذلك منتهى السعادة لأهل الإيمان ، لشعورهم بتمام النعمة ومشاهدتهم للمصير المشؤوم الذي لحق بأهل الكفر الذين كانوا يسخرون منهم ويستهزؤن بهم في دار الدنيا﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ (المطففين: ٣٠:٢٩)

يقال ساء الشي يسوء فهو سيء إذا قبح ، قال الزجاج المعنى تبين فيها السوء، أي ساءهم ذلك العذاب فظهر عليهم بسببه في وجوههم ما يدل على كفرهم كقوله(يوم تبيض وجوه وتسود وجوه)[1] – لقد- غشيتها الكآبة ورهقها القتر والذلة، ووضع الموصول موضوع ضميرهم لذمهم بالكفر ، وتعليل المساءة ، وقيل توبيخا لهم وتشديدا لعذابهم[2].

ليس هناك جرم أعظم ولا أكبر ولا أفدح من الكذب على الله ، ولذلك كانت فضيحة أصحاب هذا الأمر على رؤس الأشهاد يوم العرض ، فاسوداد الوجوه يراه كل

---

(١) فتح القدير ج : ٥ ص : ٢٦٥.

(٢) تفسير أبى السعود ج : ٩ ص : ١٠.

من تتأتى منه الرؤية ، وهذا عظم فضيحتهم وكبر خزيهم.﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾

وسواد الوجوه – بما ينالهم من الشدة التي تغير ألوانهم حقيقة ، ولا مانع من أن يجعل سواد الوجوه حقيقة علامة لهم غير مترتب على ما ينالهم ، وجواز أن يكون ذلك من باب المجاز ، لا أنها تكون مسودة حقيقة ، بأن يقال إنهم لما يلحقهم من الكآبة ويظهر عليهم من آثار الجهل بالله عز وجل يتوهم فيهم ذلك ، والظاهر أن الرؤية بصرية ، والخطاب إما لسيد المخاطبين – عليه الصلاة والسلام – وإما لكل من تتأتى منه الرؤية ، وجملة وجوههم مسودة في موضع الحال.[1]

قال عامر بن عبد قيس : كاد وجه المؤمن يخبر عن مكنون عمله وكذلك وجه الكافر.[2] ولماذا يعبر بكاد فوجه المؤمن يخبر بالفعل عن حالته ووجه الكافر أيضاً.

وفي السنة النبوية ورد التعبير بالوجوه في حالة إظهار التعجب فقد ورد عن عقبة بن الحارث – رضي الله عنه – قال صليت مع النبي – صلى الله عليه وسلم- العصر فلما سلم قام سريعا دخل على بعض نسائه ثم خرج ، ورأى ما في وجوه القوم من تعجبهم لسرعته ، فقال ذكرت وانا في الصلاة تبرا عندنا فكرهت أن يمسي أو يبيت عندنا فأمرت بقسمته.[3]

وورد في تفسير قوله تعالى : ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾

---

(١) روح المعاني ج : ٢٤ ص: ١٩.

(٢) روح المعاني ج : ٢٦ ص : ١٣١.

(٣) صحيح البخاري ج١/ص ٤٠٨ محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي ، ٢٥٦ ، دار ابن كثير اليمامة، بيروت ، ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧م الطبعة الثالثة ، تحقيق د/ مصطفى ديب البغا.

عن أبي بن كعب – رضى الله عنه – في قوله عز وجل ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ قال يصيران غبرة على وجوه الكفار ، لا على وجوه المؤمنين ، وذلك قوله عز وجل: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.(١)

وقال احمد بن عبد ربه الاندلسي وجوه جرى فيها النعيم فكللت بورد خدود يجتني بعيون(٢).

(١) المستدرك على الصحيحين ج٢/ص٥٤٣ ، محمد عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري ، ٤٠٥ هـ دار الكتب العلمية بيروت ، ١٤١١هـ ، ١٩٩٠م. الطبعة الأولى ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا.

(٢) يتيمة الدهر ج : ٢ ص : ٩ يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر : أبو منصور عبد الملك الثعالبي النيسابوري: ٤٢٩: دار الكتب العملية : بيروت : ١٩٨٣: الثانية المحقق : الدكتور مفيد محمد قميحة.

من بلاغة التعبير بالإشارة

التعبير بالإشارة لا تقل أهميته عن التعبير بالألفاظ ، بل في بعض المقامات تفرق وتفضل التعبير بالألفاظ من حيث البلاغة والإقناع ، وفي بعض الأحيان يحتمها الموقف ويوجبها ، فبها يخص مخاطب دون غيره ، وبها يخفى الأمر عن البعض دون البعض، وفي بعض المواقف تنقذ صاحبها من شر محدق ، وبها يزداد حب الزوج لزوجه ، والحبيب لحبيبه، والمشير إن استطاع أن يوصل ما في نفسه إلى الغير فهذا نوع من أرقي أنواع البلاغة إذا تطلبه المقام.

وأهمية التعبير بالإشارة قد عرفه وفطن إلى مزاياه أئمة اللغة ، ممن عايشوا أحوال الناس في تصرفاتهم ومختلف أحوالهم ، ترقبوا بدقة شديدة ما ورد من ذلك في كلام البلغاء ، ومن هؤلاء الجاحظ في كتابه البيان والتبيين حيث يشير إلى أنواع الإشارة، وما يفهم منها من معانٍ فيقول :

فأما الاشارة فباليد وبالرأس وبالعين والحاجب والمنكب إذا تباعد الشخصان، وبالثوب وبالسيف ، وقد يتهدد رافع السوط والسيف فيكون ذلك زاجر ارادعا ، ويكون وعيدا وتحذيرا، و الإشارة واللفظ شريكان ، ونعم العون هي له ، ونعم الترجمان هي عنه ، وما اكثر ما تنوب عن اللفظ وما تغني عن الخط .[1]

وفي موضع آخر يشير الجاحظ إلى أن الإشارة معروفة وموصوفة ، وأنها مختلفة في طبقاتها ودلالاتها ويذكر ما تكون به من وسائل وما يكون فيها من فوائد ومنافع مثل الإسرار والإخفاء في الأمور التي يطلب فيها ذلك حيث يقول: (وبعد فهل تعدو الإشارة أن تكون ذات صورة معروفة وحلية موصوفة على اختلاف في

---

(١)البيان والتبيين ج : ١ ص :٥٥.

طبقاتها ودلالتها ، وفي الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح مرفق كبير ومعونة حاضرة في أمور يسرها الناس من بعض ، ويخفونها من الجليس ، وغير الجليس ، ولولا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاص الخاص، ولجهلوا هذا الباب البتة ، ولولا أن تفسير هذه الكلمة يدخل في باب صناعة الكلام لفسرتها لكم.

ويشير الجاحظ إلى فضل الإشارة على الصوت في بعض المقامات حيث يقول ((ومبلغ الإشارة أبعد من مبلغ الصوت فهذا أيضا باب تتقدم فيه الإشارة الصوت ، وحسن الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان باللسان ، مع الذي يكون مع الإشارة من الدل والشكل والتفتل والتثني واستدعاء الشهوة وغير ذلك من الأمور.[1]

وقال السيوطي : وفي شرح الفصيح للمرزوقي حكى بعضهم أن أوبأت تختص بالإشارة إلى خلف ، وأومأت تختص بالإشارة إلى قدام ،وقيل الإيماء هو الإشارة على أي وجه كانت ، والإيباء يختص بها إذا كانت إلى خلف.[2]والقرآن الكريم يذكر الإشارة في موقف من أهم المواقف التي لايصلح فيها اللفظ مهما كانت بلاغتها ، وكذلك في شأن مريم البتول وهي في أمس الحاجة إلى القول ،ولكن ماذا تصنع وقد نذرت للرحمن ألا تكلم أحداً من البشر ، أو أرادت إظهار الآية العظيمة الدالة على نبوته،

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ (مريم:٢٩)

فأشارت اليه: أي إلى عيسى ،وإنما اكتفت بالإشارة ولم تأمر بالنطق لأنها نذرت للرحمن صوما عن الكلام،.. هذا على تقدير أنها كانت إذ ذاك في أيام نذرها،

---

(١) البيان والتبيين ج : ١ ص : ٥٦.

(٢) المزهر في علوم اللغة وأنواعها ج:٢ص:٢٥٣ : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيو طي:٩١١ :دار الكتب العلمية: بيروت:١٩٩٨ الطبعة: الأولى المحقق : فؤاد علي منصور.

وعلى تقدير أنها قد خرجت من أيام نذرها فيمكن أن يقال إن اقتصارها علي الإشارة للمبالغة في إظهار الآية العظيمة، وأن هذا المولود يفهم الإشارة ويقدر على العبارة،(قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا) ، هذا الاستفهام للإنكار والتعجب من إشارتها إلى ذلك المولود بأن يكلمهم.[1]

وربما يكون السبب في الإشارة حالته النفسية حيث قالت قبل ذلك ﴿...يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ (مريم ٢٣)

ويضاف إلى ذلك العتاب المرير الذي وجه إليها من قبل قومها ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ۝ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾(مريم : ٢٧، ٢٨) فهل بعد كل ذلك تقوى على الكلام بالتلفظ. وهذه الإشاره قد أوفت بالعرض ،والدليل على ذلك أن قومها فهموا مرادها حيث ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ (مريم ٢٩) وفهم عيسى هذه الإشياء حيث ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ (مريم: ٣٠)

وكان الصوم بالامتناع عن الكلام نوعاً من أنواع التقرب إلى الله – تعالى – في الأمم السابقة ، فإذا نذر المقترب الصوم بالامتناع عن الكلام استعاض عن ذلك بالرمز بالإشارة،وتقوم بكل ما يريد إفهامه للغير ، ومن ذلك ورد قوله–تعالى:﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ (آل عمران: ٤١)

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾(مريم : ١٠)

---

(١) فتح القدير ج :٣ ، ص ٣٣٢.

ورد في كتاب التبيان في تفسير غريب القرآن ((قال أخبرني عن قوله تعالى إلا رمزا قال الإشارة باليد والوحي بالرأس قال وهل تعرف العرب ذلك قال نعم أما سمعت قول الشاعر:

ما في السماء من الرحمن مرتمز

إلا إليه وما في الأرض من وزر[1]

وقيل : الرمز تحريك الشفتين باللفظ من غير إبانة بصوت وقد يكون إشارة بالعين والحاجبين[2].

وهل الرمز ومن جنس الكلام أو من غيره يوجد خلاف فمن جعل الاستثناء متصلاً فالرمز عنده من جنس الكلام ،من جعله منقطعاً كان عنده من غير جنس الكلام.

جاء في فتح القدير : وهو استثناء منقطع لكون الرمز من غير جنس الكلام ، وقيل هو متصل على معنى أن الكلام ما حصل به الإفهام من لفظ أو إشارة أو كتابة ، وهو بعيد والصواب الأول وبه قال الأخفش والكسائي.[3]

وقد أشار صاحب فتح القدير إلى العلة من هذا الصوم فقال ((ووجه جعل الآية هذا لتخلص تلك الأيام لذكر الله سبحانه شكراً على ما أنعم به عليه ،وقيل بأن

---

(١) الإتقان ج : ١ ص :٣٥٦ جلال عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي : ٩١١.

(٢) التبيان في تفسير غريب القرآن ج :١ ص : ١٤٦ : شهاب الدين أحمد بن محمد الهائم المصري : ٨١٥ : دار الصحابة للتراث بطنطا : القاهرة : ١٩٩٢ الطبعة : الأولي المحقق : د. فتحي أنور الدابولي.

(٣) فتح القدير ج : ١ ص: ٣٣٨.

عقوبة من الله سبحانه له بسبب سؤاله الآية بعد مشافهة الملائكة إياه ، حكاه القرطبي عن أكثر المفسرين.[١]

والسنة النبوية المشرفة سلك صاحبها ﷺ مسلك الإشارة في كثير من المقامات مثل مقام التشريع ، وبيان الأحكام ، والتعليم ، والوعظ والنصح والتوجيه والإرشاد والتضرع والدعاء والتحذير والتخويف ، وغير ذلك.

ففي حكم متابعة المأموم لإمامه في كل ما يفعل ورد في صحيح البخاري عن عائشة – رضى الله عنه – زوج النبي – صلى الله عليه وسلم – أنها قالت صلى رسول الله ﷺ في بيته وهو شاك جالسا ، وصلى وراءه قوم قياما ، فأشار إليهم أن أجلسوا ، فلما انصرف قال إنما جعل الإمام ليؤتم به ، فإذا ركع فاركعوا وإذا رفع فارفعوا.[٢]

وفي مقام التوجيه والإرشاد ورد عن كعب بن مالك أنه كان له على عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي مال فلقيه فلزمه حتى ارتفعت أصواتهما فمر بهما النبي ﷺ فقال يا كعب فأشار بيده كانه يقول النصف فأخذ نصف ما عليه وترك نصفاً.[٣]

وفي مقام التحذير والتنبيه ورد عن عبد الله رضي الله عنه قال قام النبي ﷺ خطيبا فأشار نحو مسكن عائشة فقال هنا الفتنة ثلاثا من حيث يطلع قرن الشيطان[٤].

وفي مقام الإشارة إلى التأسي في المحافظة والمواظبة على السواك ولو في أصعب الأوقات ورد عن عمر بن سعيد قال أخبرني ابن أبي مليكة أن أبا عمرو ذكوان مولى

---

(١) فتح القدير ج : ١ ص : ٣٣٨.

(٢) صحيح البخاري ج١ / ص ٤١٥.

(٣) صحيح البخاري ج٢ / ص ٩٦٣.

(٤) صحيح البخاري ج ٣ / ص ١١٣٠.

عائشة أخبره أن عائشة كانت تقول إن من نعم الله علي أن رسول الله ﷺ توفي في بيتي وفي يومي وبين سحري ونحري ، وأن الله جمع بين ريقي ريقه عند موته دخل علي عبد الرحمن وبيده السواك وأنا مسندة رسول الله ﷺ فرأيته ينظر إليه وعرفت أنه يحب السواك فقلت آخذه لك فأشار برأسه أن نعم فتناولته فاشتد عليه وقلت ألينه لك فأشار برأسه أن نعم فلينته فأمره وبين يديه ركوة أو علبة يشك عمر فيها ماء فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه يقول لا إله إلا الله إن للموت سكرات ثم نصب يده فجعل يقول اللهم في الرفيق الأعلى حتى قبض ومالت يده.[1]

وفي مقام التحذير والتخويف من خطورة اللسان ورد وقال ابن عمر قال النبي ﷺ لا يعذب الله بدمع العين ولكن يعذب بهذا فأشار إلى لسانه.....[2]

وكن النبي ﷺ لم يقل ولكن يعذب باللسان دليل على أن الإشارة الىاللسان أبلغ في التحذير والتخويف من الذكر با للفظ ، وفي مقام التضرع والدعاء وردعن أنس بن مالك أن النبي ﷺ استقى فأشار بظهر كفيه إلى السماء.[3]

والحكمة في الإشارة بظهر الكفين في الاستسقاء دون غيره للتفاؤل بتقلب الحال ظهر البطن ، ما قيل في تحويل الرداء أو هو إشارة إلى صفحة المسئول وهو

---

(١) صحيح البخاري ج٤ / ص ١٦١٦.

(٢) صحيح البخاري ج٥ / ص٢٠٢٨.

(٣) صحيح مسلم ج٢ / ص ٦١٢ ، مسلم أبو الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، ٢٦١ ه دار إيحاء التراث بيروت، ت محمد فؤاد عبد الباقي .

نزول السحاب إلى الأرض[١] واستشهد الحافظ بعدة أبيات ليدلل بها على تنوع دلالات الإشارة وقد قال الشاعر[٢] في دللت الإشارة :

أشارات بطرف العين خيفة أهلها

إشارة مذعور ولم تتكلـــم

فأيقنت أن الطرف قد قال مرحبا

وأهلا وسهلا بالحبيب المتيم

وقال الآخر[٣].

وللقب على القلب دليل حين يلقـاه

وفي الناس من مقاييس وأشبـاه

وفى العين غنى للمرء أن تنطق أفواه

وقال اخر:[٤]

ومعشر صيد ذوي تجلـــــة

ترى عليهم للندى أدلـــــة

---

(١) فتح الباري ج ٢ / ص ٥١٨ ، أحمد بن علي بن حجر الفضل ا الشافعي، ٨٥٢ ه ، دار المعرفة بيروت ، تحقيق محب الدين الخطيب.

(٢) الشعر لعمر بن أبي ربيعة انظر الأغاني ج: ٢٠ ص: ٣٣٨.

(٣) ينسب لعلي بن أبي طالب أنظر روضة العقلاء ج ١ ص ١١٨.

(٤) لم أقف على قائله.

وقال الآخر :[١]

ترى عينها عيني فتعرف وحيها

وتعرف عيني مابه الوحي يرجع

وقال الآخر :[٢]

وعين الفتى تبدي الذي في ضميره

وتعرف بالنجوى الحديث المغمّسا

وقال الآخر : [٣]

العين تبدي الذي في نفس صاحبها

من المحبة أو بغض إذا كـــــانا

والعين تنطق والأفواه صامتـــــــه

حتى ترى من ضمير القلب تبيانا[٤]

---

(١) لم أقف على قائله.

(٢) لم اقف على قائله.

(٣) ينسب لابن الأعرابي انظر روضة العقلاء ج ١ص١٠٤

(٤)البيان والتبيين ج:١ص:٥٦ ، ٥٧ .

من بلاغة التعبير بالعيون

ولغة العيون لغة بليغة للغاية، ولها أكبر الأثر في توصيل المراد وإبلاغه ، وفي بعض الأحيان لا يكون سبيل للإفهام سواها ، أو هي أبلغ دلالة من اللفظ وأقوى تأثير أمن القول. ونلحظ العين كلغة من لغات التخاطب في حياتنا اليومية،ففي مجال التربية نرى بعض الآباء يعودون أبناءهم على الاكتفاء بالنظر ، فمثلاً إذا تكلم الابن الصغير في حضرة كبار السن بكلام غير مرض ينظر إليه والده نظرة يفهم منها الابن تحذيره وزجره، وأمره بالكف عن التحدث ، وهذه النظرة تحمل من المعاني ما تعجز عنه أي عبارة مهما كانت بلاغتها. والعين لها مكانتها المتميزة فهي وسيلة النظر ، والنظرة أنواع فهناك النظرة المتبادلة ،والنظرة من جانب واحد ، والنظرة الدالة على العطف والشفقة والرحمة ، والنظرة التي تدل على المقت والغضب، والنظرة التي تدل على الخوف والتوجس والاضطراب وعدم الاستقرار ، ونظرة تدل على الحزن والألم ، والنظرة الدالة على البدء في الحديث والاستمرار فيه ، أو التوقف عنه ،والنظرة التي تشير إلى التأمل والعمق والاستغراق في التفكير.

وفي الجانب العاطفي ، هناك العين التي تسبي ،والعين التي تقتل، والعين التي تزني ،لذلك أمر الله –تعالى – بغض البصر

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ (النور: ٣٠، ٣١)

وعيون تبيض من الحزن ، وعيون تفيض من الدمع ، وعيون تدور من الخوف، وعيون تنظر نظرة سخرية واستهزاء ،وغير ذلك من مجالات النظر الواسعة والتي لا يقوى على تفسيرها إلا الموقف واللغة المتبادلة بين الناظر والمنظور إليه.

والقرآن الكريم يصور لنا مشهداً يدل دلالة بينة على أن الدمع يعبر عما في النفس ، حيث يصور الفئة التي هي أقرب مودة للذين آمنوا في وقت سماعهم للقرآن من النبي-ﷺ-حيث عبروا عن اعترافهم بالحق بغزارة الدمع ، فلم يجدوا من العبارات ما ينطق بحالة اعترافهم مثل تدفق الدموع من أعينهم ،وهذه حالة معروفة مألوفة نشاهدها كثيراً فعندما يشتد تأثير الحزن يكون الدمع أوفي واقوي من أي تعبير مهما كانت بلاغته، وقوة تأثير الحزن في الإنسان لا يجد من القول ما يعبر به مثل فيضان الدمع،إنها شحنة مكبوتة في النفس لا يفلح في إخراجها إلا فيضان الدمع .

﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (المائدة : ٨٣)

وهو بيان لرقة قلوبهم ، وشدة خشيتهم ، ومسارعتهم إلي قبول ا لحق، وعدم تأبيهم عنه، والفيض انصباب عن امتلاء ،فوضع موضع الامتلاء للمبالغة، أو عينهم من فرط البكاء كأنها تفيض بأنفسها.(١)

ويصور القرآن الكريم حرص طائفة من الصحابة على الانضمام إلى صفوف المجاهدين لما يعلمون من عظيم الأجر وكبير المثوبة ،لكن الفقر المدقع يقف حائلا دون رغبتهم الملحة، فليست لديهم الرواحل التي تحملها إلي أرض الجهاد ، وليس معهم من المال ما يبلغهم غايتهم ، ويحقق لهم مطلبهم ، لذلك أصابهم الحزن الشديد ، والألم العميق والذي أبد ته حالتهم ، وعبر عنهم فيضان الدموع من

---

(١) تفسير البيضاوي ج: ٢ص: ٣٥٧.

محاجرهم ، ولو أنهم استحضروا كل الألفاظ التي تعبر عن الحزن الشديد لأخفقت عن وصف حالة الحزن هذه كما وصفتها الدموع بغزارتها وكثره تدفقها .

﴿وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ (التوبة : ٩٢)

والفيض . هنا مجاز عن الامتلاء بعلاقة السببية، والدموع الماء المخصوص، ويجوز إبقاء الفيض على حقيقته ، ويكون إسناده العين مجازا كجري النهر ، والدمع مصدر دمعت العين دمعا[1]. ويصور القرآن الكريم حال المنافقين وقت القتال ، وما يعتريهم من الخوف الشديد من أن يلحق القتل بهم ، فهم داخلو الحرب ، وقلوبهم تتمنى هزيمة المسلمين ، ومن أهم مظاهر الخوف و القلق والحيرة العيون التي تحمل أحداقاً تدور يميناً ويساراً لتوقع مجيء القتل من مكان ، وهذا حال أهل النفاق في كل زمان ومكان.

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاء الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ (الأحزاب :١٩)

(تدور أعينهم) أي تدور يمينا وشمالا، وذلك سبيل الجبان إذا شاهد ما يخافه (كالذي يغشى عليه من الموت) أي كعين الذي يغشى عليه من الموت ، وهو

(١) روح المعاني ج : ١٠ ص : ١٦٠.

الذي نزل به الموت وغشيته أسبابه ، فيذهل ويذهب عقله ويشخص بصره فلا يطرف، ويقال للميت إذا شخص بصره دارت عيناه ودارت حما ليق عينيه[1].

وفي الخوف وجهان أحد هما من قتال العدو إذا أقبل قاله السدي ، الثاني الخوف من النبي – ﷺ– إذا غلب قاله ابن شجرة، ومن النبى ﷺعلى الثانى (تدور أعينهم) لذهاب عقولهم حتى لا يصلح منهم النظر إلي جهة ، وقيل لشدة خوفهم حذار أن يأتيهم القتل من كل جهة[2].

والعين وسيلة النظر لذلك أمر الله – تعالى العباد في كثير من آيات الكتاب العزيز بكثرة النظر، والداعي للتأمل وأخذ العظة والعبرة ومن ذلك :

﴿وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام :٩٩)

﴿قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ (يونس : ١٠١)

وقد ورد في السنة المطهرة أن العين تزني وزناها النظر عن ابن عباس قال ما رأيت شيئا أشبه با للمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ إن الله كتب على ابن آدم

---

(١) فتح القدير ج : ٤ص : ٢٧٠.

(٢) تفسير القرطبي ج : ١٤ ص :١٥٣.

حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة فزنا العين النظر وزنا اللسان المنطق والنفس تتمنى وتشتهي والفرج يصدق ذلك كله أبو يكذبه[١].

وفي ضرر العين من حيث تأثير ها بالحسد على المحسود ورد قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ (القلم : ٥١) وأخرج البخاري عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال العين حق[٢].

وقد ورد في الشعر ما تفعله العيون بقلوب العاشقين من القتل وتلف النفس ومن ذلك، ورد قول جرير.

إن العيون التي في طرفها حـــور

قتلننا ثم لم يحيين قتلانـــا

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به

وهن أضعف خلق الله أركانا[٣]

وللعيون لغة تبلغ المراد وإن بدا من المظاهر ما يخالف ذلك ولا يخفى ما كان... بين ليلى والمجنون ففي بعض المواقف. أنشدت تقول:

كلانا مظهر للناس بغضـــــــا

وكل عند صاحبه مكيـــن

---

(١) صحيح البخاري ج ٥ / ص ٢٣٠٤.

(٢) الدر المنثور ج ٨ / ص٢٦٢ : عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي : ٩١١:دار الفكر:بيروت : ١٩٩٣.

(٣) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ج:١ ص :٢٧٨: أبي الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن عبد الكريم الموصلي: ٦٣٧: المكتبة العصرية: بيروت : ١٩٩٥ : المحقق : محمد محي الدين عبد الحميد.

تبلغنا العيون بما أردنـــــــــا

وفي القلبين ثم هوى دفيـــن

فلما سمع البيتين شهق شهقة شديدة وأغمي عليه فمكث على ذلك ساعة ونضحوا الماء على وجهه حتى أفاق.[1] وهكذا بلاغة التعبير بالعيون معروفة ومألوفة ولا يقوى منصف على إنكارها ، أو تجاهل قوة تأثيرها ، وأنها في بعض المقامات لا يحل القول ،ولا يؤدي مؤادها ، ولا يقترب من بلاغتها.

(١) الأغاني ج : ٢ ص :١٥ : أبي الفرج الأصفهاني : ٣٥٦ : دار الفكر : بيروت الطبعة : الثانية المحقق : سمير جابر.

التعبير بالتبسم

والتبسم لغة من أهم لغات التواصل ، فظاهره يوحي بسعادة النفس وبهجتها وسرورها ، ولكنه قد يخرج عن هذا المعنى إلى معانٍ أخرى ، مثل السخرية ، أو الاستهزاء ، أو الغضب، أو التظاهر بالفرح ، وقد يأتي على السجية ، وقد يتكلفه صاحبه في نفسه ، واللبيب الفطن هو الذي يفرق بينهما.

مملكة النمل مملكة أمرها عجيب وهى تدل كما يدل غيرها على بديع صنع الخالق – سبحانه – ، حتى أن نبي الله سليمان – عليه السلام – تعجب من صنيع مديرة أمور النمل – ومدبرة لشؤونه – فهي تخشى على سلامة النمل من مملكة نبي الله سليمان وهم يمرون ، وبلغ علمها ومعرفتها ، أنه إذا حدث منهم ذلك فلا لوم عليهم ، لأنهم لا يتعمدونه، بل إذا حدث منهم ذلك فهم لا يشعرون به ، نظراً لصغر حجم النمل ، وما يترتب عليه من عدم رؤيتهم ، ولقد صور القرآن الكريم هذا المشهد العجيب والملفت والداعي إلى التأمل.

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾(النمل : ١٩)

بسم يبسم بسما ، و ابتسم وتبسم وهو أقل الضحك وأحسنه ، وفي التنزيل (فتبسم ضاحكا من قولها) قال الزجاج التبسم أكثر ضحك الأنبياء –عليهم الصلاة والسلام– ، وقال الليث بسم يبسم بسما إذا فتح شفتيه كالمكاشر ، وامرأة بسامة

ورجل بسام ،وفي صفته أنه كان رجل ضحكه التبسم ،و ابتسم السحاب عن البرق انكل عنه.[١]

(فبتسم ضاحكا من قولها) تعجبا من حذرها وتحذيرها واهتدائها إلى مصالحها ، وسرورا بما خصه الله –تعالى– به من إدراك همسها وفهم غرضها ، ولذلك سأل توفيق شكره.[٢]

وقيل – وسرورا بشهرة حاله وحال جنوده في باب التقوى والشفقة فيما بين أصناف المخلوقات التي هي أبعدها من إدراك أمثال هذه الأمور... روى أنها أحست بصوت الجنود و لا تعلم أنهم في الهواء فأمر سليمان عليه السلام الريح فوقفت لئلا يذعرن حتى دخلن مساكنهن.[٣]

وعن تفسير إرداف التبسم بالضحك قال الألوسي ((بل جاء جل وعلا بضاحكا نصبا على الحال ليكون المقصود بالافادة التجاوز إلى الضحك.. وفيه بقوة تأثير قولها فيه عليه السلام حيث أداه ما عراه منه إلى أن تجاوز حد التبسم آخذا في الضحك ولم يكن حاله التبسم فقط.[٤]

وفى البحر أنه لما كان التبسم يكون للاستهزاء وللغضب كما يقولون تبسم الغضبان وتبسم المستهزيء وكان الضحك إنما يكون للسرور والفرح أتي سبحانه بقوله تعالى ضاحكا لبيان أن التبسم لم يكن استهزاء ولا غضبا انتهى.[٥]

---

(١) لسان العرب ج:١٢ ص : ٥٠.

(٢) تفسير البيضاوي ج : ٤ ص : ٢٦٢.

(٣) تفسير أبي السعود ج : ٦ ص : ٢٧٩.

(٤) روح المعاني ج : ١٩ ص : ١٨٠.

(٥) روح المعاني ج : ١٩ ص : ١٨٠.

ولا يخفى أن دعوي أن الضحك لا يكون إلا للسرور والفرح يكذبها قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ فإن هذا الضحك كان من مشركي قريش استهزاء بفقرهم كعمار وصهيب وخباب وغيرهم كما ذكره المفسرون ، ولم يكن السرور والفرح وكذا قوله تعالى ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ كما هو الظاهر وإن هرعت إلى التأويل قلنا الواقع يكذبها فإن أنكرت ضحك منك أولوا الألباب وفيه أيضا غير ذلك فتأمل والله تعالى الهادي إلى صوب الصواب.(١)

وقال القالي في أماليه حدثنا أبو بكر بن الأنباري قال حدثني أبي عن أحمد بن عبيد عن الزيادى عن المطلب بن المطلب بن أبي وداعة عن جده قال : رأيت رسول الله وأبا بكر رضي الله عنه على باب بني شيبة فمر رجل وهو يقول من الكامل :

يا أيها الرجل المحول رحله ... ألا نزلت بآل عبد الدار

هبلتك أمك لو نزلت برحلهم ... منعوك من عدم ومن اقتار

قال فالتفت رسول الله إلى أبي بكر فقال أهكذا قال الشاعر قالا لا والذي بعثك بالحق لكنه قال من الكامل:

يا أيها الرجل المحول رحله ... ألا نزلت بآل عبد مناف

هبلتك أمك لو نزلت برحلهم ... منعوك من عدم ومن إقراف

الخالطين فقيرهم بغنيهم ... حتى يعود فقيرهم كالكافي

ويكللون جفانهم بسديفهم ... حتى تغيب الشمس في الرجاف

---

(١) روح المعاني ج : ١٩ ص: ١٨٠.

قال فتبسم رسول الله وقال هكذا سمعت الرواة ينشدونه.[١]

وورد في الشمائل أنه ﷺ إذا فرح غض طرفه جل ضحكه التبسم يفتر عن مثل حب الغمام.[٢]

وكان ﷺ تعجبه بعض المواقف فيهش لها ويبش ،ويعبر عن ذلك بالتبسم ، ومن ذلك ما ورد عن عمر – رضى الله عنه – دخل على حفصة فقال يا بنية لا يغرنك هذا التي أعجبها حسنها وحب رسول الله ﷺ إياها يريد عائشة فقصصت على رسول الله ﷺ فتبسم.[٣]

ومن القبائح المرزولة التي نهى الإسلام عنها التبسم والضحك إذا كانا على سبيل السخرية والاستهزاء ، فقد ((أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله لا يغادر صغيرة ولا كبيرة قال الصغيرة التبسم والكبيرة الضحك)). وأخرج ابن أبي الدنيا في ذم الغيبة وابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال الصغيرة التبسم بالاستهزاء بالمؤمنين والكبيرة القهقهة بذلك.[٤]

وفي مقام من مقام من مقامات تسلية الرسول ﷺ يثبت الله قلبه بأن نبي الله موسي عليه السلام عندما جاء لفرعون وملئه بالآيات ما قابلوها إلا بالسخرية والاستهزاء والذي من أظهر مظاهره الضحك ـ فعبروا عما في نفوسهم من حقد وبغض وصد بالضحك الذي يعبر في الأصل عن حالة السعادة والسرور والفرح ، لكنه هنا

---

(١) المزهر في علوم اللغة وانواعها ج : ٢ ص : ٢٨٦ ، ٢٨٧.

(٢) الشمائل المحمدية ج١ / ص ١٨٥ ، محمد بن عيس بن سورة الترمزي أبو عيسى ، ٢٧٩ هـ مؤسسة الكتب بيروت ، ١٤١٢ هـ الطبعة الأولى ، المحقق سيد عباس الجلميي.

(٣) صحيح البخاري ج٥ / ص ٢٠٠١.

(٤) الدر المنثور ج ٥ / ص ٤٠١.

يخرج عن ذلك المعنى ، إلى معنى السخرية والاستهزاء.﴿فَلَمَّا جَاءهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾(الزخرف : ٤٧).

فلما جاء موسى فرعون وملأه بحججنا وأدلتنا على صدق قوله فيما يدعوهم إليه من توحيد الله والبراءة من عبادة الآلهة إذا فرعون وقومه مما جاءهم به موسي من الآيات والعبر يسخرون ، وهذا تسلية من الله عز وجل نبيه ﷺ عما كان يلقى من مشركي قومه ، وإعلام منه له أن قومه من أهل الشرك لن يعدوا أن يكونوا كسائر الأمم الذين كانوا على منهاجهم في الكفر بالله وتكذيب رسله ، وندب منه نبيه ﷺ إلى الاستنان في الصبر عليهم بسنن أولي العزم من الرسل ، وإخبار منه له أن عقبى مردتهم إلى البوار والهلاك كسنته في المتمردين عليه قلبهم وإظفاره بهم وإعلائه أمره كالذى فعل بموسى عليه السلام وقومه الذين أمنوا به من إظهارهم على فرعون وملئه.[1]

والقراء ن الكريم يستحضر يوم القيامة صورة المجرمين وهم يسخرون في دار الدنيا من أهل الأيمان ، ومن مظاهر تلك السخرية الضحك الذي خرجوا به عن طبيعة الفرح والسرور إلى معنى السخرية والاستهزاء ، وهذا لون بليغ من ألوان السخرية ، وهو أشد وطأ وأقوى تفسيرا من التعبير باللفظ . ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ (المطففين ٢٩)

حكاية لبعض قبائح مشركي قريش جيء بها تمهيدا لذكر بعض أحوال الأبرار في الجنة (كانوا) في الدنيا(من الذين آمنوا يضحكون) أي يستهزئون بفقرائهم كعمار وصهيب وخباب وبلال وغيرهم من فقراء المؤمنين ، وتقديم الجار

---

(١)تفسير البيضاوي ج : ٢٥ ص: ٧٩.

والمجرور أما للقصر أشعار بغاية شناعة ما فعلو أي كانوا من الذين آمنوا يضحكون مع ظهورهم عدم إستحقا قهم لذالك على مناهج قوله تعالى (أفي الله شك) أو لمراعاة الفواصل .[١]

دوام الحال من المحال ، والظلم لايدوم ، فكما سخر الكفار من أهل الايمان فى الدنيا بالضحك ومن عبادتهم فإن أهل الإيمان يضحكون ضحك سخرية من أهل الكفر ، حتى يكون الجزاء من جنس العمل ،وكما كان ضحك الكفار في الدنيا متكرراً ومتجدداً بتجدد فعل الطاعات فكذلك ضحك أهل الإيمان من الكفار يوم القيامة متكرر ومتجدد بتكرار وتجدد المواقف ، وبتنوع وتلون العذاب.

﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ (المطففين: ٣٤)

(من الكفار يضحكون) حين يرونهم أذلاء مغلوبين في النار ،وقيل يفتح لهم باب إلى الجنة فيقال لهم اخرجوا إليها فإذا وصلوا أغلق دونهم فيضحك المؤمن منهم[٢] .-وقيل -يضحكون حين يرونهم أذلاء مغلولين قد غشيهم فنون الهوان والصغار بعد العزة والكبر، ورهقهم الوان العذاب بعد التنعم والترفه،وتقديم الجار والمجرور للقصر تحقيقا للمقابلة ، أي فاليوم هم من الكفار يضحكون لا الكفار منهم كما كانوا يفعلون في الدنيا.[٣]

ولقد تحدث القرآن الكريم في كثير من آياته عن النفاق وأهله، وما يضمرونه من حقد وغل على أهل الإيمان ، ومن مظاهر ذلك تخلفهم عن الجهاد في سبيل الله، وفرحهم الشديد بهذا التخلف ، وعد القرآن فرحهم في دار الدنيا والذي من مظاهره

---

(١) تفسير أبي السعود ج:٩ص :١٢٩.

(٢) تفسير البيضاوى ج : ٥ص : ٤٦٧.

(٣) تفسير أبى السعود ج : ٩ص: ١٣٠.

الضحك قليلاً بالنسبة لبكائهم في الآخرة ، لأن أيام الدنيا معدودة محدودة ، وأيام الأخرة لا نهايه لها ، فبكاؤهم مستمر ودائم .

﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ (التوبه : ٨٢)

وهذا إخبار عن عاجل عمرهم وآجله من الضحك القليل والبكاء الطويل المؤدى إليه أعمالهم السيئة ، التى من جملتها ما ذكر من الفرح ، والفاء لسببيّة ما سبق للأخبار بما ذكر من الضحك لا لنفسهما إذا لايتصور السببية فى الأول أصلا ، وقليلا وكثيرا منصوبان على المصدرية ، أو الظرفية أى ضحكا قليلا وبكاء كثيرا ، أو زمانا قليلا أو زمانا كثيرا ، وإخراجه فى صورة الأمر للدلالة على تحتم وقوع المخبر به ، فإن أمر المطاع مما لا يتخلف عنه المأمور به، خلا أن الأمر المقصود إفادته فى الأول هو وصف القلة فقط وفى الثانى وصف الكثرة مع الموصوف ، يروى أن أهل النفاق يبكون فى النار عمر الدنيا لا يرفألهم دمع ولا يكتحلون بنوم، ويجوز أن الضحك كناية عن الفرح والبكاء عن الغم ، وأن تكون القله عبارة عن العدم والكثرة عن الدوام.(١)

وقد أقر النبى صلى الله علية وسلم الضحك كوسيلة من إبداء الفرح والسرور ومن ذلك ما ورد فى صحيح البخارى فى باب التبسم والضحك وقالت فاطمة عليها السلام أسر ألى النبى صلى الله عليه وسلم فضحكت وقال أبن عباس إن الله هو أضحك وأبكى.(٢)

وكان ابن سيرين يضحك ويحتج على الحسن ويقول الله (هو الذى أضحك وأبكى) وكانت الصحابة يضحكون ، وروى عن عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال

---

(١) تفسير أبى السعود ج : ٤ص: ٨٨ ، ٨٩.

(٢) صحيح البخاري ج ٥ / ص ٢٠٠١.

سئل ابن عمر هل كان أصحاب رسول الله ﷺ يضحكون قال نعم ، والأيمان فى قلوبهم أعظم من الجبال أنتهى، ولا يوجد أحد ذهده كذهد سيد الخلق ، وقد ثبت عنه أنه ضحك وفى رسول الله – صلى الله صلى الله عليه وسلم – وأصحابه المهديين الأسوة الحسنة ، وأما المكروه من هذا الباب فهو الإكثار من الضحك ، كما قال لقمان عليه السلام لابنه إياك وكثرة الضحك فإنها تميت القلب ، والإكثار منه وملازمته حتى يغلب صاحبه مذموم منهى عنه.[1]

والضحك إذا كان يشعر بالسخرية أو المنقصة فهو مذموم فقد روى عن الأسود قال دخل شاب من قريش على عائشة وهى بمنى وهم يضحكون فقالت ما يضحككم قالوا فلان خر على طنب فسطاط فكادت عنقه أو عينة أو تذهب فقالت لا تضحكوا فإنى سمعت رسول اللهﷺ ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها إلا كتبت له بها درجة ومحيت عنه بها خطيئة.[2]

والضحك ما دام يعبر عن السعادة والفرح ولا يشعر بالسخرية والأستهزاء فهو ممدوح .

---

(١) عمدة القارى ج ٢٢ ص ١٥٠ ، بدر الدين محمود بن أحمد العينى ، ٨٥٥هـ دار إحياء التراث بيروت .

(٢) صحيح مسلم ج ٤ ص١٩٩١.

التعبير بالبكاء

والبكاء فى الأصل يعبر عما فى النفس من حزن وألم ، ولكنه يخرج من هذا المعنى ، فقد يكون الباكى غير حزين ، وإنما غرضه من وراء ذلك الأستجداء والأستعطاف ، والبكاء له أثر عجيب فى التأثير على النفوس ، واستمالتها ، ونزولها إلى الرغبة ، وقد يكون الغرض منها إظهار الخشوع ، كما ورد فى كثير من آيات الكتاب العزيز فى شأن أهل الإيمان ومدحهم بذلك ، وكذلك فى السنة المطهرة،والبكاء منه المتكلف المصطنع مثل ما يشاهد ليل نهار من الممثلين في جل المسلسلات و الأفلام فالواحد من هؤلاء عنده القدرة على ان يبكي ويبكي ويضحك ويضحك ، فاذا بكى ربما يكون غير حزين بهذا البكاء ، وإذا ضحك ربما يكون غير سعيد بهذا الضحك، لكنه من باب إتقان الصنعة ، فقد صار البكاء عنده حرفة ، وكذلك الضحك ، فهو يضحك متى شاء، وبعض الناس منحهم الله القدرة على التمييز والتفريق بين ما جاء منه على السجية وبين ما جاء منه متكلفا .

وجمود العين عده العرب من أخطر العيوب ، فالعين الجامدة هى التى تبخل بالدمع وقت طلبه قال الخطيب :

الجمود خلو العين من البكاء فى حال إرادة البكاء منها فلا يكون كناية عن المسرة وإنما يكون كناية عن البخل كما قال الشاعر :

ألا إن عينا لم تجد يوم واســـط

عليك بجاري دمعها لجمـــود

ولو كان الجمود يصلح يرادبه عدم البكاء في حال المسرة لجاز أنْ يدعي به للرجل فيقال لازالت عينيك جامدة، كما يقال لا أبكى الله عينيك ، وذلك مما لا يشك في بطلانه،وعلى ذلك قوله أهل اللغة سنة جماد لا مطر فيها ، وناقة جماد لا لبن

لها، فكما لا تجعل السنة والناقة جمادا إلا على معنى أن السنة بخيلة بالقطر والناقة لا تسخو بالدر لا تجعل العين جمودا إلا وهناك ما يقتضى إرادة البكاء منها وما يجعلها إذا بكت محسنة موصوفة بأنها قد جادت وإذا لم تبك مسيئة موصوفة بأنها قد ضنت. (١) والبكاء رغم أنه يعبر عما في النفس من حزن إلا أن فيه متنفسا وإفراغا لشحنة الحزن،والشعراء القدامى فهموا هذا المعنى ومن ذلك قول الخنساء:

إذا قبح البكاء على قتيـــل رأيت بكاءك الحسن الجميلات.(٢)

وما ذلك إلا لمعزته عندها ، وهذا البكاء يعمل على تخفيف حزنها وتقليل آلامها. وكثيراً ما يذكر القرآن البكاء في مقامات الخشوع فمثلاً يذكر من صفات أنبيائه البارزة البكاء الدال على الخشوع ، وذلك عند سماعهم لآيات الله تتلى على مسامعهم.

وحكى القرآن عنهم هذا الوصف لأنهم مناط الأسوة ومحل القدوة ، ولتحقق ذلك فيهم عبر القرآن بـ إذا .﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ (مريم ٥٨)

خروا سجدا وبكيا وصفهم بالخشوع لله والبكاء.... يقال بكى يبكى وبكى بكيا إلا أن الخليل قال إذا قصرت البكاء فهو مثل الحزن أي ليس معه صوت كما قال الشاعر:

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة ج:١ ص : ١١: جلال الدين أبوعبد الله محمد بن سعد الدين عمر القزويني : دار العلوم : بيروت: ١٩٩٨ الطبعة الرابعة.

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة ج :١ ص:٩٨.

بكت عيني وحق لها بكاها

وما يغني البكاء ولا العويل

وسجدا نصب على الحال ، بكيا عطف عليه ، الثانية في هذه الآية دلالة على أن لآيات الرحمن تأثيرا في القلوب ، قال الحسن (إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا)في الصلاة ، وقال الأصم المراد بآيات الرحمن الكتب المتضمنة لتوحيده وحججه ، وأنهم كانوا يسجدون عند تلاوتها ،ويبكون عند ذكرها ،والمروى عن ابن عباس أن المراد به القرآن خاصة، وأنهم كانوا يسجدون ويبكون. (١)

وهذا استئناف مسوق لبيان خشيتهم من الله تعالى واخباتهم له ، مع حالهم من علو الرتبة وسموا الطبقة في شرف النسب وكما النفس والزلفى من الله عز سلطانه.(٢)

ويثني الله على قوم أوتوا العلم من قبله عندما يسمعون الآيات تتلى على مسامعهم لا يتمالكون أنفسهم ، ولا يجدون من الألفاظ ما يعبر عن حالتهم ، إنما وجدوا العيون التي تفيض من الدمع من قوة تأثرهم وشدة خشوعهم.

﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ (الاسراء : ١٠٩).

يستحب البكاء عند قراءة القرآن والتباكي لمن لا يقدر عليه والحزن والخشوع قال تعالى (ويخرون للأذقان يبكون) ، وفي الصحيحين حديث قراءة ابن مسعود عن النبي ﷺ وفيه فإذا عيناه تذرفان. (٣)

هذه مبالغة في صفتهم ، ، ومدح لهم ، وحق لكل من توسم بالعلم وحصل منه شيئا أن يجري إلى هذه المرتبة فيخشع عند استماع القرآن، ويتواضع ويذل، وفي

---

(١) تفسير القرطبي ج : ١١ ص : ١٢٠.

(٢) تفسير أبي السعود ج : ٥ ص : ٢٧١.

(٣) الإتقان ج : ١ ص : ٢٨٥.

مسند الدارمي أبي محمد عن التيمي قال من أوتي من العلم مالم يبكه لخليق ألا يكون أوتي علما ، لأن الله تعالى نعت العلماء ثم تلا هذه الآية ذكره الطبري.[١]

قال أبو يعقوب السوسي البكاء على أنواع – بكاء من الله تعالى ، وهو أن يبكي خوفا مما جرى به القلم في الفاتحة ويظهر في الخاتمة ، وبكاء على الله عز وجل وهو أن يبكي تحسرا على ما يفوته من الحق تعالى ، وبكاء لله تبارك وتعالى وهو أن يبكي عند ذكره سبحانه وذكر وعده ووعيده وبكاء بالله تعالى وهو أن يبكي بلاحظ منه في بكائه.[٢]

أما البكاء المصطنع والمفتعل ، فقد ذكره القرآن عندما عبر أخوة يوسف عن تظاهرهم بالحزن على فقد أخيهم ، وقلوبهم ليس بها ذرة حزن ، لأن ما فعلوه قد دبروه وبيتوه وعزموا على فعله ، فالبكاء كذب وما قالوه عقب البكاء كذلك.

﴿وَجَاؤُواْ أَبَاهُمْ عِشَاء يَبْكُونَ﴾ (يوسف : ١٦)

(يبكون) متباكين ،روى أنه لما سمع يعقوب عليه السلام بكاءهم فزع وقال ما لكم يا بني،واين يوسف.[٣] ولهذا جاءت الحال في صورة المضارع مع أن العامل الذي يفيده ماض نحو (وجاءوا أباهم عشاء يبكون) إذ المراد أن يفيد صورة ما هم عليه وقت المجيء ،وأنهم آخذون في البكاء يجددونه شيأ بعد شيء ، وهو المسمي حكاية الحال الماضية وهذا هو سر الإعراض عن اسم الفاعل والمفعول.[٤]

---

(١) تفسير القرطبي ج : ١٠ ص : ٣٤١.

(٢) روح المعاني ج: ١٥ ص: ١٩٨.

(٣) تفسير أبي السعود ج: ٤ ص: ٢٥٩.

(٤) الإتقان ج : ١ ص : ٥٧٨.

التعبير بالمشي

والتعبير بالمشي في الأصل يعبر بـه عـن الإخبـار عـن الانتقـال مـن مكـان إلى مكان، ولكن قد يخرج عن هذا المعنى ، فقد يدل علـى التواضـع والسـكينة والوقـار ، وقد يدل على التكبر والافتخار والمباهاة ، وقد يدل على الخوف والوجل والاضـطراب وغير ذلك.

ولما كانت أهم صفة من صفات عباد الرحمن هي صفة التواضع في المشـي وعـدم التكبر أو الخيلاء بدأ القرآن الكريم بها ، فمشيتهم تعبر عما تنطوي عليـه نفوسـهم من التواضع الجم، والسكينة والوقار ، فكل مـن شـاهدهم لمـس ذلـك فـيهم وأقربـه ، والموافق من يتأثر بهم في هذا الخلق الكريم.

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَـاهِلُونَ قَـالُوا سَلَامًا﴾ (الفرقان : ٦٣).

(الذين يمشون علـى الأرض هونـا) أي بسـكينة وتواضـع ، وهونـا مصـدر وصـف بـه ،ونصبه إما على أنه حال من فاعل يمشون ، أو على أنـه نعـت لمصـدره ، أي يمشـون هينين ليني الجانب من غير فظاظة ، أو مشيا هينا.[1]

وفي التفسـير يمشـون علـى الأرض حلمـاء متواضـعين ، يمشـون في اقتصـاد والقصـد والتـؤدة وحسـن السـمت مـن أخـلاق النبـوة ،وقـال ﷺ أيهـا النـاس علـيكم بالسكينة فإن البر ليس في الإيضاع ... وقال ابن عباس بالطاعـة والمعـروف والتواضـع الحسن ، حلماء إن جهل عليهم لم يجهلوا ، وقيـل لايتكـبرون علـى النـاس ، قلـت

(١) تفسير أبي السعود ج : ٦ ص :٢٢٨.

وهذه كلها معان متقاربة ويجمعها العلم بالله والخوف منه والمعرفة بأحكامه والخشية من عذابه وعقابه جعلنا الله منهم بفضله ومنه.[١]

﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ (الاسراء : ٣٧) (ولا تمش في الأرض مرحاً) أي ذا مرح وهو الاختيال ، وقرئ مرحا وهو باعتبار الحكم ابلغ وإن كان المصدر آكد من صريح النعت (إنك لن تخرق الأرض) لن تجعل فيها خرقا بشدة وطأتك (ولن تبلغ الجبال طولا) بتطاولك ، وهو تهكم بالمختال ، وتعليل للنهي بأن الاختيال حماقة مجردة لا تعود بجدوى.[٢]

والمرح قيل هو شدة الفرح ، وقيل التكبر فى المشى ، وقيل تجاوز الإنسان قدره،وقيل الخيلاء فى المشى ،وقيل البطر والأشر ، وقيل النشاط ، والظاهر أن المراد به هنا الخيلاء والفخر ، قال الزجاج في تفسير الآية (لاتمش فى الأرض) مختالا فخورا.[٣]

وذكر الأرض مع أن المشي لا يكون إلا عليها أو على ما هو معتمد عليها تأكيدا وتقريرا ولقد أحسن من قال :

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعاً

فكم تحتها قوم هم منك أرفع

وإن كنت فى عز وحرز ومنعة

فكم مات من قوم هم منك أمنع[٤]

---

(١) تفسير القرطبي ج : ١٣ ص : ٦٨ ، ٦٩.

(٢) تفسير البيضاوي ج :٣ ص : ٤٤٦.

(٣) فتح القدير ج : ٣ ص : ٢٢٨.

(٤) فتح القدير ج : ٣ ص : ٢٢٨.

وقيل للتذكير بالمبدأ والمعاد ، وهو أردع عن المشي مشية الفاخر المتكبر ، وادعى لقبول الموعظة، كأنه قيل لا تمش فيما هو عنصرك الغالب عليك الذي خلقت منه وإليه تعود والذي قد ضم من أمثالك كثيرا مشية الفاخر المتكبر.[١]

وفي مقام آخر يأتي النهي عن الإختيال والتكبر في المشية وذلك ضمن وصية لقمان لابنه ، حيث الدعوة إلى الخير تتطلب ضمن وصية لقمان لابنه ، حيث الدعوة إلى الخير تتطلب التواضع ، حتى يجد الداعي آذاناً صاغية وقلوباً واعية ونفوساً راغبة مقبلة، والمشي أهم مظهر من مظاهر التواضع ، عندما يبتعد به صاحبه عن التبختر والخيلاء.

ومن ذلك أيضا قوله تعالى:

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (لقمان : ١٨)

(إن الله لا يحب كل مختال فخور) تعليل للنهي أو موجبه ، والمختال من الخيلاء ، وهو التبختر في المشي كبرا ،وقال الراغب : التكبر عن تخيل فضيلة تراءت للإنسان من نفسه ومنه تؤول لفظ الخيل ، لما قيل أنه لا يركب أحد فرساً إلا وجد في نفسه نخوة ، والفخور وهو المباهاة في الأشياء الخارجة عن الإنسان كالمال والجاه ، ويدخل في ذلك تعداد الشخص ما اعطاه لظهور أنه مباهاة بالمال ، وعن مجاهد تفسير الفخور بمن يعدد ما أعطى ولا يشكر الله عز وجل.[٢]

وفي الاية عند الزمخشري لف ونشر مُرَتَّب حيث قال المختال مقابل للماشي مرحا ، وكذلك الفخور للمصعر خده كبرا ن وذلك لرعاية الفواصل على ما قيل ،ولا

---

(١) روح المعاني ج : ١٥ ص :٧٥.

(٢) روح المعاني ج : ٢١ ص :٩٠.

يأبى ذلك كون الوصية لم تكن باللسان العربي كما لا يخفى ، وجوز أن يكون هناك لف ونشر مرتب ، فإن الإختيال يناسب الكبر والعجب ، وكذا الفخر يناسب المشي مرحا ، ... ، وصيغة فخور للفاصلة ،ولأن ما يكره من الفخر كثرته ، فإن القليل منه يكثر وقوعه ، فلطف الله – تعالى- بالعفو عنه ، وهذا كما لطف بإباحة إختيال المجاهد بين الصفين ، وإباحة الفخر بنحو المال لمقصد حسن.[1]

ثم يعرفه المشية التي ترضي الخالق والمخلوق وتحجب الناس فيه وفي دعوته إلى الخير ، وهي المشية الوسط والتي فيها القصد والاقتصاد ، فلا تماوت يشعر بالذلة والهوان والضعف ولا الشدة التي تشعر بالتفضل والتكبر والتجبر ، فالقصد في المشي المأمور به في الآية هو فضيلة بين رزيلتين.

﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾(لقمان :١٩)

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(لقمان :٧)

---

(١) روح المعاني ج : ٢١ ص : ٩٠.

تغيير القلوب

والقلوب لها أهميتها العظمى ومنزلتها الكبرى فهي محل الأيمان وسيدة الجوارح فإذا لم تواطئ أفعال الجوارح ما فى القلب فلا عبرة لها ، ولا يعتد بها ، ولقد تحدث القراء ن الكريم كثيرا عن القلوب وأحوالها وأصنافها فهناك قلوب فيها السكينة والطمأنينة:

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (الفتح ٤)

<u>وقلوب فيها الرأفة والرحمة:</u>

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (الحديد ٢٧)

<u>وقلوب تطمئن بذكر الله:</u>

﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد٢٨)

<u>وقلوب تتقى:</u>

﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (الحج٣٢)

<u>وقلوب توجل من خشية الله:</u>

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (الأنفال:٢)

وقلوب ألف الله بينها:

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال: ٦٣)

وقلوب تمتحن للتقوى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّـهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (الحجرات ٣)

وقلوب تخشع لذكر الله:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّـهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (الحديد١٦)

وقلوب كتب فيها الإيمان:

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّـهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (المجادلة ٢٢)

وقلوب فارغة ، وقلوب يربط عليها:

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (القصص١٠)

وفي المقابل قلوب يلقى فيها الرعب والخوف:

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ (آل عمران : ١٥١)

وقلوب طبع الله عليها:

﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلَىَ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ (الأعراف :١٠١)

وقلوب لا تفقه ولا تفهم:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (الأعراف ١٧٩)

وقلوب تشمئز:

﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (الزمر :٤٥)

وقلوب عليها أقفالها:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد : ٢٤)

وقلوب واجفة من شدة الهول:

﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ (النازعات : ٨)

ومن هذه التعبيرات أيضا

النجوم التي خلقها الله تعالى وهى آيه من آياتـه المتكـررة والمتجـددة والدالـة على باهر قدرته ، وعظيم صنعه ، وهى تشتمل على نوع من أنواع البلاغة ، وذلك من حيث الاهتداء بها كعلامات بارزة تعرف الطريق وتهـدى الضـال ، فهـي توصـل إلى المراد بلا قول.

﴿وَعَلامَاتٍ وَبالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾(النحل :١٦)

وهى أيضا زينة للسماء تشعر الناظر إليها بالفرح والسرور والبهجة ، وتساعد الإنسان وغيره فى بعض حاجاته اليسيرة .

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بمَصَابيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾(الملك :٥)

وفى عصرنا الحديث يوجد الكثير من ألوان التعبير بغير القول ومـن ذلـك ، فن الرسم، فالرسام الماهر الذى منحـه الله قـوة التـذوق ، ودقـة الاحسـاس ، وغـزارة المشاعر ، يرسم اللوحة وهو يعرف مدى تأثيرها على المشـاهدين لهـا ، فهـو يحـزن المشاهد بفضل ما تشتمل عليه اللوحة من المناظر المحزنة ، وكذلك يفرحـه بفضـل مـا تشتمل عليه اللوحة من المناظر المبهجة . وهنـاك لوحـات تنقـل الحقـائق كمـا هـي ، وبعضها يغير الحقائق بالمبالغة فيها بالتضخيم والتكبير ، أو الـتهجين بالتصـغير ، أو التسوية أو غير ذلك ، وهذا باب واسع يعرفه المشتغلون بهذا الفن ، والمتذوقون له والمتابعون لتطوره .

ومن ذلك أيضا فن التمثيل الصامت ، وهو الذي ينقل المشاهد الكثيرة ، والتي تعبر عن نفسها بلا قول ، وأحيانا يتحرك الممثلون ويكتفون بالفعل دون القول والمتابع يعرف المراد ويفطن إلى المقصود دون أدنى مشقة .

وأيضا مخاطبة ذوى العاهات مثل الصم والبكم بلغات الإشارة المدروسة والمعروفة والتي من خلالها يمارس المعاق حياته اليومية ويستطيع التعامل مع الغير، من حيث توصيل مراده إليهم وتوصيل مرادهم إليه ، حتى أن بعض وسائل الأعلام المرئية لا تغفل جانب الصم والبكم ، فبجانب الذى يتلو الأخبار أو المعلومات يوجد من يترجم ذلك عن طريق الإشارة ، وعملية إيصال المراد لهذه النوعية من البشر هو من صميم البلاغة ، ناهيك عما يحدثه هذا الصنيع من سعادة وسرور في نفس المعاق ، فهو يشعر باهتمام المجتمع به وعنايته ورعايته له، وصلته بالعالم من حوله ، فهو لا تقل معرفته بمن حوله عن الصحيح السليم الذي يتمتع بقوة السمع والقدرة على الكلام .

وهناك ما هو أكثر شيوعا من ذلك كله وهو فن (الكركاتير) والذي أكتظت به الصحف اليومية الأسبوعية والشهرية والفصلية لما له من تأثير عجيب وفعال على القارئ لهذا اللون والمحب له والمتعود عليه ، وهذا اللون لا يقتصر على شئ معين من الأحداث أو الأوضاع فهو يتناول القضايا السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو غير ذلك ، وهو يجمع مع النقد والتجريح والتوجيه المتعة والتسلية بأسلوب ساخر مضحك ، ويستطيع المتمكن من هذا الفن أن يعبر به عما يشاء دون الخوف من التبعة أو المسؤلية أو العقوبة ، وهذا شبيه بفن الحكاية على لسان الحيوان في فن القول في القديم والحديث .

خاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام على من ختم الله به الأنبياء وبعد . فهذه لمحة سريعة خاطفة أردت أن أدلل بها على ثراء بلاغة العرب ونموها وتجددها وعدم توقعها وانكماشها وحصرها وحبسها في فن القول .

بل هى نامية بنمو اللغة ومتجددة بتجددها ، وشاملة لكل ألوان التبليغ والإبلاغ سواء أكان ذلك عن طريق القول أو غيره من وسائل الإبلاغ والتي ذكرت جانبا منها في هذا البحث الموجز والمختصر .

فالصورة التي تؤثر في المشاهد بحسنها أو قبحها فهي بليغة والزهرة الجميلة التي تجلب السعادة والبهجة والسرور لمن ينظر إليها فهي بليغة ، والوجه الذي يؤثر في الغير هو وجه بليغ . يقول العقاد : والجملة البليغة هي الجملة التي تبلغ بك إلى فحواها بلا مبالغة في التحلية تشغلك بصيغتها عن دلالتها ، ولا قصور في التعبير يقف بك عند ألفاظها فيثنيك عن مضامينها ، وكذلك قل في الصورة البليغة، والزهرة البليغة ، والوجه البليغ .[1]

وأرجو من الله العلى القدير أن يكون هذا البحث قد وفى بالغرض ، وأن يكتب له التوفيق والرضا والقبول وصلى الله على نبينا محمد ﷺ وعلى أله وصحبه وسلم .

---

(١) مراجعات فى الأدب والفنون ص٤٤.عباس محمود العقاد دار الكتاب العربى بيروت طبعة أولى ١٩٦٦.

المصادر والمراجع

١- الإتقان جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى : ٩١١.

٢- الأغاني : أبى الفرج الأصفهانى : ٣٥٦:دار الفكر : بيروت الطبعة : الثانية المحقق : : سمير جابر .

٣- الإيضاح في علوم البلاغة : جلال الدين أبو عبد الله محمد بن سعد الدين بن عمر القزوينى : دار إحياء العلوم : بيروت : ١٩٩٨ الطبعة:الرابعة.

٤- البيان والتبيين : أبى عثمان عمرو بن بحر ٢٥٥ دار صعب بيروت ١٩٦٨ الطبعة : الأولى المحقق : المحامى فوزي عطوى.

٥- التبيان فى تفسير غريب القرآن : شهاب الدين أحمد بن محمد الهائم المصري : ٨١٥: دار الصحابة للتراث بطنطا : القاهرة : ١٩٩٢ الطبعة : الأولى المحقق : د.فتحي أنور الدابولى.

٦- تفسير البيضاوي : البيضاوي ٧٩١ دار الفكر : بيروت : ١٤١٦- ١٩٩٦ المحقق : عبد القادر عرفات العشا حسونة.

٧- تفسير القرطبى : الجامع لأحكام القران : محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فرح القرطبى أبو عبد الله : ٦٧١ دار الشعب القاهرة : ١٣٧٢ الطبعة : الثانية المحقق : أحمد عبد العليم البردونى.

٨- تفسير أبى السعود : إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم : محمد بن محمد العمادى أبو السعود : ٩٥١: دار إحياء التراث العربي : بيروت.

٩- الدر المنثور : عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطى : ٩١١ : دار الفكر : بيروت : ١٩٩٣.

١٠- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى : محمود الألوسى أبو الفضل : ١٢٧٠ دار إحياء التراث العربى : بيروت.

١١- الشمائل المحمدية ، محمد بن عيسى بن سورة الترمذي أبو عيسى ، ٢٧٩هـ مؤسسة الكتب بيروت ، ١٤١٢ هـ الطبعة الأولى ، المحقق سيد عباس الجليمى.

١٢- الصناعتين ، أبى هلال العسكري ، تحقيق على محمد البجاوى ومحمد أبو الفضل إبراهيم.

١٣- صحيح البخاري : محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفى ،٢٥٦، دار أبن كثير اليمامة ، بيروت ، ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م الطبعة الثالثة ، تحقيق د/ مصطفى ديب البغا.

١٤- صحيح مسلم ، مسلم أبو الحجاج أبو الحسين القشيرى النيسابورى ،٢٦١هـ دار إحياء التراث بيروت ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.

١٥- عمدة القارى ، بدر الدين محمود بن أحمد العينى ٨٥٥ هـ دارإحياء التراث بيروت

١٦- فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير : محمد بن على بن محمد الشوكانى : ١٢٥٠ : دار الفكر : بيروت.

١٧- فتح البارى ، أحمد بن على بن حجر الفضل العسقلانى الشافعى ،٨٥٢ هـ ، دار المعرفة بيروت ، تحقيق محب الدين الخطيب.

١٨- لسان العرب : محمد بن مكرم بن منظور الإفريقى المصرى ٧١١ دار صادر بيروت رقم الطبعة الأول.

١٩- المستدرك على الصحيحين ، محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابورى ، ٤٠٥ هـ دار الكتب العلمية بيروت ، ١٤١١ هـ ١٩٩٠ م الطبعة الأولى ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا.

٢٠- المزهر فى علوم اللغة وأنواعها ج : ٢ص : ٢٥٣ : جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى : ٩١١: دار الكتب العلمية : بيروت : ١٩٩٨ الطبعة : الأولى المحقق : فؤاد على منصور.

٢١- المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر : أبى الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الموصلى : ٦٣٧ : المكتبة العصرية :بيروت ١٩٩٥ المحقق : محمد محيى الدين عبد الحميد.

٢٢- مراجعات فى الأدب والفنون . عباس محمود العقاد دار الكتاب العربى بيروت طبعة أولى ١٩٦٦.

٢٣- يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر : أبو منصور عبد الملك الثعالبى النيسابورى : ٤٢٩ : دار الكتب العلمية : بيرةت : ١٩٨٣ : الثانية المحقق : الدكتور مفيد محمد قميحة.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة.	
ملامح الوجوه.	
من بلاغة التعبير بالإشارة.	
من بلاغة التعبير بالعيون.	
التعبير بالتبسم.	
التعبير بالذكاء.	
التعبير بالمشي.	
تغيير القلوب.	
ومن هذه التعبيرات أيضا.	
الخاتمة.	
المصادر والمراجع.	